

ناسخ في الجيب

بقلم : ضياء الشرقاوى

البيضاء راقدة وسط ستة وثلاثين قرشا في قاع الجيب .. هذا الشهر ملعون جمد الناس الى جوار مدافئهم أو فى فراشهم .. لا زبائن .. وسميحة لا تمرض الا فى هذا الشهر الملعون الشحيح .. والميدان فسيح كئيب تضيق حدوده فى الظلام .. وثلاث عربات فقط يحلقون حول بعض ، اثنتان صغيرتان .. وواحدة قارعة يلوح عليها عليها العز والثراء .. انه لا يأمل كثيرا فى العربتين الصغيرتين والعربة الكبيرة لن تعطيه أقل من خمسة قروش .. خمسة قروش .. العربتان الصغيرتان قرشان أو ثلاثة .. ما يأتى منهم ؟ سيضعه فى جيب سميحة .. ضرورى .. تحسس الجيوب الأخرى .. جيبه خال لم يضع فيه شيئا تماما فليؤجل موضوع رتق الحذاء .. وهذا جيب الإيجار فيه قروش قليلة .. وجيب زوجته .. وجيب الأكل .. وجيب محمد .. جيوب كثيرة واسعة خالية الوفاض وننى الورقة برفق .. وادخل يده بين زراير الجاكيت .. ودلفت أصابعه دون أن تتحسس طريقها الى جيب سميحة حيث تركت الورقة فى القاع .. وانتشله من تفكيره صوت عربة من العربتين

أدخل يده بين زراير الجاكيت .. ودلفت أصابعه دون أن تتحسس طريقها الى جيب سميحة .. انها تعرف طريقها تماما الى هذا الجيب ولم تخطئ مرة واحدة .. فوق القلب مباشرة والتفت حول ورقة مطوية راقدة فى ركنها بهدوء .. ونشرها امام عينيه واخذ يتفحص الكلمات الغريبة التى لا يعرف منها شيئا .. أفى هذه الكلمات القليلة الشفاء لسميحة من مرضها الطويل ؟ .. وتداخلت الحروف أمام عينيه وتشابكت وبرز من بينها وجه الطبيب الشاب وهو يقول له :
اشتر هذا الدواء بسرعة .. واعطها جرعة كل ساعتين ..

— أهذا الدواء غال يا سيدى ؟

قال الطبيب الشاب :

لا .. لن يزيد عن جنيته ..

تمتم ؟

— جنيته .. جنيته ..

لطمته هذه الكلمات .. وود لو يقول له : ألا تكتب لنا دواء رخيصا شيئا ما بدل هذا الدواء باسئدى ؟

وهامو شهر كامل يتقضى ولا يستطيع أن يشتري هذا الدواء .. الورقة

الصغيرتين .. واندفع نحوها يلوح بيده
ويتقدمها .. وعندما حاذته .. أسقط
الرجل في يده قرشين .. ومرقت تقتحم
الظلام .. رفع الحارس عم بيومي
القرشين الى شفتيه وقبلهما بامتنان ..
وامتدت يده بهما بين الزراير ودلفت الى
جيب سميحة .. وخيل اليه أن الكلمات
تجمعت ورز من بينها وجه الطبيب
الذي أخذ يحصى النقود .. فتمتم عم
بيومي كأنه يحادثه ويطمئنه :

وقل العربية الصغيرة الثانية
قرشين لآخرين .. والعربة الكبيرة
خمس قروش .. يكون الحساب خمسة
وأربعين قرشا .. هانت .

وأحس بالارتياح .. خيل اليه انه
لمح ابتسامة على وجه سميحة .. أخذت
الرياح الباردة تجوب الميدان طولاً وعرضاً
مثل الكلاب الجائعة المجنونة تطارد
بعضها بعضاً .. لقد صارت أكثر من
العربات هذه الايام .. والرياح تجوب
الميدان دون أن تدفع شيئاً .. ماذا
سيقبض من الرياح ؟ هل هي تعرف أن
وراءه في البيت ابنة مريضة تحتاج
الدواء .. وفي قدميه حذاء يحتاج
الرتق .. وسكننا يحتاج الإيجار ..
وولدا وزوجة .. الرياح لاتعرف شيئاً
.. ولا تريد أن تعرف شيئاً .. حتى
ولا تريد أن تتركه واقفاً في مكانه وحيداً
في أمان الله .. بل تصفعه وتعاثه ..
وتجذب ذيل جلبابه .. وشق طريقه
الى العربية الصغيرة وجلس الى جانبها
يحتمى بها من عبث الرياح .. وسميحة
ترمقه بعينيها الذابلتين في حنان ..
ود لو أغلقتهم ونامت فلماذا تستيقظ
معه هي الاخرى حتى هذه الساعة المتأخرة
من الليل .. التؤنسه وتبدد وحشته ؟
فلتنامي .. معي العربتان تؤنسان

وحشتي .. يومان أو ثلاثة وسأشتري
لك الدواء .. وتستردين صحتك
وعافيتك وتلعبين مع الاولاد في الحارة
كما كنت تلعبين .. واسمع صوتك
يأتيني من بعيد .. وتعلقين بعنقي ..
وأضعك الى صدرى .. اليس لهذا الليل
من نهاية ؟ .. أين صاحبا هاتين
العربتين ؟ .. هل ناما في الملهى ..
لا بد انهما قد ناما هناك .. فكثيرا
ما ينامون في أماكنهم من فرط السكر
وينسون أنفسهم ويتركوننى ملقى
بجوار عرباتهم .. والقى نظرة الى الملهى
.. الموسيقى الصاخبة الضارية تغفو ..
والانوار تخفت .. والطريق الى البيت
طويل .. ساعة كاملة حتى يصل اليه
.. ساعة كاملة .. وتخيل صاحب
العربة الصغيرة يقول له :

أين تسكن أيها الرجل ؟
- فى السيدة عائشة .

- ياه .. انها بعيدة جداً .. والدنيا
ليل .. تعال معي لأوصلك .

وتمرق العربة فى الطرق الكثيرة
لايهمها الوحل ولا البرد .. كل شئ
غرق فى النوم .. من هنا يا سيدى ..
على طول .. الشارع القادم .. فى آخره
.. فى ماذا تفكر ايها الرجل ؟ .. ان
ابنتى سميحة مريضة منذ شهر .. انها
بنت حلوة ستحبها ان رأيتها .. ألم
تعرضها على طبيب ؟

- نعم .. نعم يا سيدى والله ..
وكتب لها الدواء .. ان الدواء غالى
يا سيدى .. ثمنه جنيه .. جنيه كامل
وهذا الشهر شحيح .. شهر بارد ..
والرياح أكثر من العربات .. الرياح
لا تدفع شيئاً يا سيدى .. لقد وفرت
ثمانية وثلاثين قرشاً حتى الآن ..

— خذ أيها الرجل هذا الجنية واشتر
الدواء ..

— أدامك الله يا سيدي في صحة
وعافية .. انها بنت حلوة ستحبها ان
رايتها ..

وفتح عم بيومي عينيه في ذعر على
صرخات رجل .. وقفز حارس العربات
من مكانه ..

أيها الحمار .. أين أنت ؟

— هذا هو انا ياسيدي ..

كان صاحب العربة الفارعة .. رجل
قصير ضخم .. له رأس كبير .. وعينان
تلتمعان بالسكر والغضب .. وتقف إلى
جانبه فتاة رفيعة من فتيات الملهى ..
وأما كثيرا تذهب مع الرجال في مثل
هذا الوقت ..

— اين فوانيس العربة يا لص ؟

وكان لكمة قوية سقطت فوق رأس
الحارس فأفقدته الوعي .. فوانيس ؟ ..
اي فوانيس ؟ .. ماذا يقصد .. هل
سُرقت وهو نائم ؟ .. وأخذ يحملق في
العربة بذهول .. والرجل الضخم يعدو
حوله ويلوح بيديه في عصبية ..
وتتم : والله ياسيدي ...

— أين كنت ؟

— لم أتحرك من هنا ياسيدي، والله ..

— اذن كيف سرقت الفوانيس ؟ ..

— لم أتحرك من هنا ياسيدي والله ..

كان الرجل يزداد صخباً ويتحسس
أماكن الفوانيس في غضب .. ولم يعرف
الحارس ماذا يفعل وقد تملكه الخوف ،
وأخذ ينظر هنا وهناك لعل أحداً ينجده
ويقف إلى جانبه .. ليته يستطيع أن
يعدو بأقصى سرعة .. ويدوب في الظلام ..

والله لم أرها ياسيدي ..

— اذن من سرقها .. أمي ؟

— والله ...

— يا عسكرى .. يا عسكرى .. لا بد

أن آخذك الى القسم ..

وأخذ صوت الرجل يمزق صمت
الميدان .. وصممت الرياح مرة واحدة
وفجأة .. وأخذت عينا الحارس تدوران
هنا وهناك ولا تريان شيئاً .. وأمسك
به الرجل من جاكته الصفراء .. وأخذ
يجذبه وراءه ..

وخرجت الفتاة من صمتها وقالت
للرجل :

— اتركه يا سنسن .. لا تعكر دمك ..

وازدادت ثورة الرجل وقال :

— لابد أن آخذه الى القسم .. لم
يسرق الفوانيس أحد غيره .. اللص ..
— والله ياسيدي .. أخذني النوم
رغماً عني .. لم أر الفوانيس ..

.. ووقعت عينا الحارس على رجل قادم
فصرخ مستعنياً :

الحقني يا عم والنبي .. ربنا
يخليك ..

وتجمع ثلاثة رجال آخرون على صوت
الجلبة .. وحاولوا أن يتفاهموا مع
الرجل الضخم الذي زاده السكر ثورة
وغضباً .. وازدادت قبضته على الجاكته
الصفراء تشبثاً واصراراً .. وابتعدت
فتاة الملهى قليلاً ووقفت الى جوار العربة
ترقب المعركة في ملل وغيظ ، وانفلت
الرجال يتفحصون الفوانيس ، ويقدمون
الحلول والترصيات الممكنة .. ويستثيرون
كرم الرجل وأريحيته .. دون فائدة ..

وقال أحدهم :

كم ثمن الفوانيس ؟ .. جنيه ..
اثنان .. افرض أن هذا المبلغ سرق من
سيادتك ..

— هذا الرجل مسكين يا سعادة البك
.. وعنده أولاد ..

قال الرجل بغلظة :

— لا يهمنى ذلك .. القسم أو يدفع
ثمن الفوانيس ..

— كم ثمن الفوانيس ؟

والثلاثين .. انه يستطيع التنازل عن
القروش القليلة التى ادخرها للإيجار
وتعتم : نعم .
- أرنا كم معك ؟

ومد يده فى جيب الإيجار . واخراج
قبضة من القروش واسقطها فى يد
الرجل الذى أخذ يحصيها وقال :
- ثلاثة وعشرون قرشا فقط .

تمتم عم بيومى :
- ليس معى غيرها .
- كل واحد يمد يده فى جيبه يخرج
مايستطيع يارجال .. لوجه الله .

ومد الرجال ايديهم فى جيوبهم ..
واسقط كل منهم ما استطاع فى راحة
الرجل : ثلاثة وعشرون .. ثلاثة
وثمانون .. جنيه وثلاثة قروش ..
جنيه ونصف .. ومنى نصف جنيه ..
فيكون المجوع جنيهين .. هاهما جنيهان
ياسعادة البك واترك الرجل .

قال الرجل الضخم :
- ثلاثة جنيهات كلمة واحدة ..
سأعرف كيف يدفعها فى القسم .
- ياسعادة البك .. جنيهان .
ومد عم بيومى يده خلال زراير الجاكيت
.. وتحسست أصابعه طريقها الى جيب
سميحة ..

وأحس بيد ابنته تمتد من الجيب
تبعد يده عن النقود .. لا .. لا يا أبى
سيأخذنى الى القسم .. يا ابنتى .. انه
مصر .. ورخش .. وسادف الجنيهات
الثلاثة هناك أو أحبس .. سأموت يا أبى
سأموت .. انى انتظر الدواء منذ شهر
السعال يمزق صدرى .. والدماغ تلوث
شفتى .. سييعوضنا الله يا ابنتى
وليرزقنا برزقك .. لماذا تمتلىء عيناك
بالدموع يا ابنتى ؟ .. وبرز وجهه
الطبيب من بين الكلمات .. وقال
حازما :

- ثلاثة جنيهات .
- لا .. ليس ثلاثة جنيهات ..
لن يزيد ثمنها عن جنيهين .
- ثلاثة جنيهات أو القسم .
ياسعادة البك ..
- ثلاثة جنيهات أو القسم .. ليس
لدى وقت لأضيعه .
قال احد الرجال :
- فلنذهب الى القسم .. لن يفعلوا
له شيئا .. ثلاثة جنيهات .. انك
تبالغ .. الرجل غلبان وليس له ذنب .
كان بيومى صامتا .. تجذبه قبضة
الرجل الضخم الهائج هنا وهناك ..
والرجال الاربعة ناثرون كأن القضية
قضيتهم هم .. وفى عيونهم الاصرار ..
وتحرك الرجال خطوات .. وتلاقت
أعينهم لحظة ثم قال أحدهم لزملائه :
- مارأيكم يارجال ؟ فلندفع له المبلغ
وأمرنا الله .

رفضت اعينهم الاذعان للرجل ..
وتهامس رجلان ثم قالوا :
- انتظر قليلا ياسعادة البك .
وتوقفوا جميعا ملتفين حول الحارس
.. وواصل أحدهما :
- ان الرجل فقير .. وصاحب عيال .
وسندفع لك النصف ولتتحمل انت
النصف .. هذا عدل .

قال الرجل باصرار وهو يهيم بمواصله
الطريق الى القسم :
ثلاثة جنيهات أو القسم .
كور أحد الرجال قبضته وفكر فى أن
يطوحها فى وجهه الضخم ويصرعه
أرضا .

سأل رجل منهم الحارس :
- هل معك نقود ؟
هل يقول لهم لا .. هل سيكون
كاذبا حينذاك .. ليس له الحق فى
قرش واحد من قروش سميحة الثمانية

اشترى هذا الدواء بسرعة .

هل أعود اليها وجيبها خال .. ماذا ستقول سميحة ؟ انيوم في جيبك عشرة قروش يا سميحة اليوم في جيبك واحد وعشرون قرش يا سميحة .. اليوم صارت ستة وثلاثين .. سأشترى لك الدواء قريباً يا سميحة .. ماذا سأقول لها اليوم ؟ .. هل سأقول لها لم يعد في جيبك مليم واحد يا سميحة .. هانت يا ابنتي .. لا .. ما زال الطريق الى الجنيه طويلاً ..

ما زال الطريق الى الشفاء طويلاً .. كانت أصابعه تتلاحم .. وتتقدم ببرود على تواصل الطريق وتنتزع من بين أصابعها الواهنة حق الدواء رغم الدوخ .. أم تنكص وليكون ما يكون .. يا ابنتي العزيزة .. أعدك وعداً صادقاً سأشترى لك الدواء قريباً .. سأسأل جارنا قرضاً مرة ثانية .. سأستعطفه ، وستأتي في الغد مائة عربة وعربة .. وكل النقود ستكون لك .. ستكون للدواء .. صدقيني .. لن أستطيع أن أدفع لهذا الرجل ثلاثة جنيهات بمفردي في القسم وسيحبسونني .. وربما سحبت مني الرخصة .. هل يرضيك هذا ؟ .. لن تريني اذا حبسوني في القسم .. ولن أستطيع أن أراك .. أما في الغد .. فستأتي مائة عربة وعربة بالتأكيد .. وكل النقود ستكون لك .. خذها يا ابني .. خذها .. واصطدمت أصابعه بالقروش .. وافرغ قبضته في يد الرجل وهو يقول :

— هذه نقود سميحة .. ثمانية وثلاثون

قال الرجل الضخم : من يفتشه يجد معه مائة جنيه على الأقل .

قالت فتاة الملهي في غضب : لماذا كل هذا الاصرار ؟ .. الرجل عجوز ومسكر .

قال الرجل :

أنا واثق انه هو الذي سرق الفوانيس . قال الحارس عم بيومي : والله لم أسرق شيئاً .. كيف أسرق ولي ابنة مريضة ؟ وواصل الرجل : لابد أن نؤدبهم ونضعهم عند حدهم .. ولعل هذا يكون درساً نافعاً .

وانفجر عم بيومي يبكي فجأة . وأزاح أحد الرجال قبضة الرجل الضخم بعيداً عن كتف الحارس . وأمسكت الفتاة بذراع الرجل وقالت :

— يكفي هذا .. يكفي هذا .. انه رجل مسكين .

لا يهمني هذا .. انه لص . قال عم بيومي : والله لقد أخذت حق الدواء .

قال الرجل الضخم وفتاة الملهي تذرعه أمامها : دعيني حتى آخذ حقى كاملاً .. هذا اللص .

وصرخ الحارس : لست لصاً .. انا لست لصاً .

— أسمعين ماذا يقول الآن هذا الحمار ؟

— لقد أخذت ثمن الدواء ماذا تريد بعد ذلك ؟

كان الرجل متوترين .. لف الرجل الضخم حول عربته .. وجلس أمام عجلة القيادة .

فتحت الفتاة باب العربة ومدت يدها بسرعة الى عم بيومي .. وأسقطت في يده ورقة نقدية .. وهمست :

— خذ هذه الخمسين قرشاً من أجل

الدواء ايها الرجل

— لا يا ابنتي .. ابقهم من أجلك ..

غدا ستأتي مائة عربة وعربة .

ولكن قبل أن يقول أى كلمة كانت قد أغلقت الباب .. وانطلقت العربة .